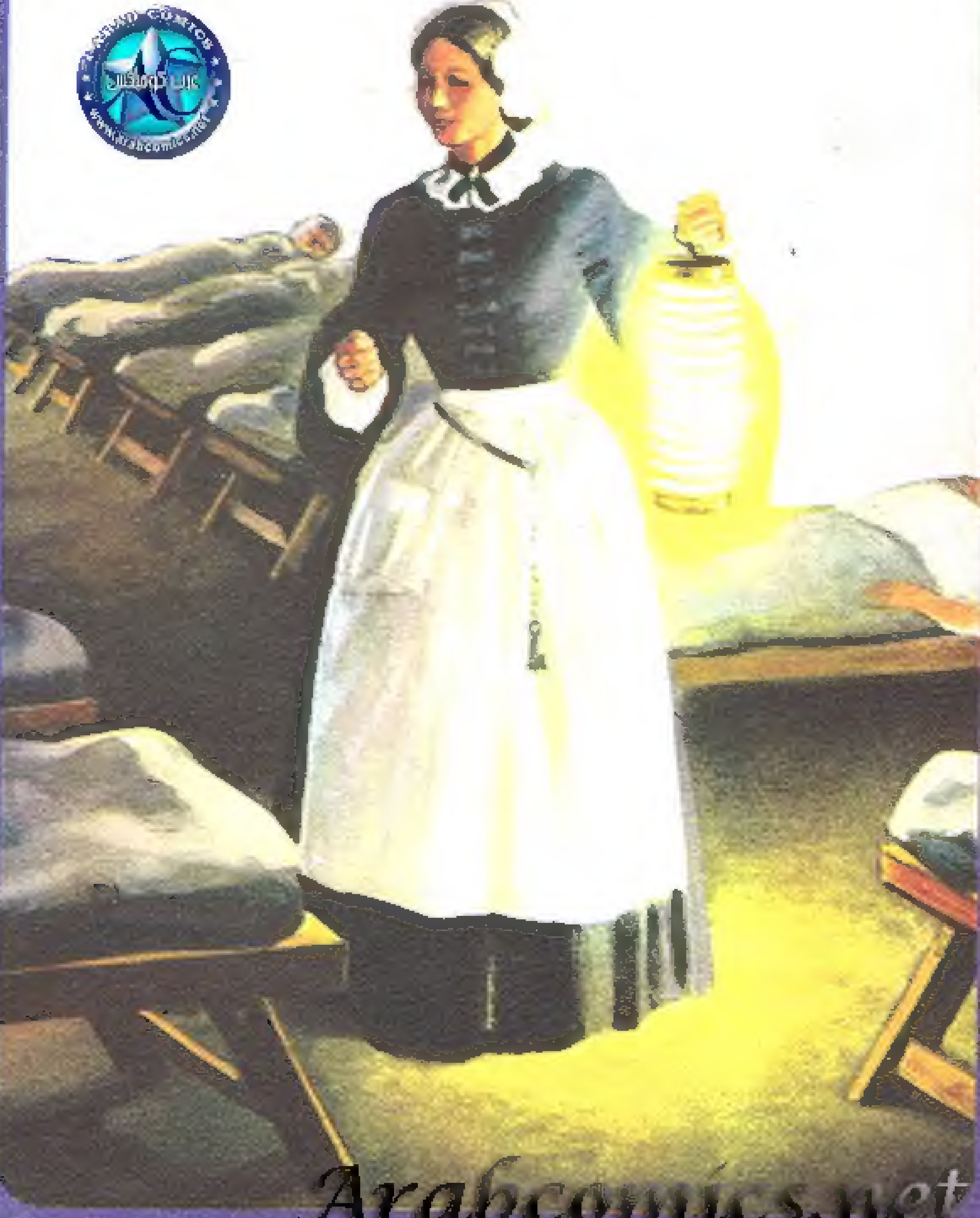
فلورَنس نيَتِنْغيل

من سلسلة ليديبرد



إنَّ مُمَرِّضاتِ العالَمِ كُلِّهِ، ومُسْتَشْفَياتِه مَدينَةٌ بالشَّيْءِ الكَثيرِ لِفلُورَنْس نَيْتِنْغيل، إحْدى أعْظَمِ النِّساءِ الشَّهيراتِ في التّاريخِ . سَيَظَلُّ اسْمُ فلُورَنْس نَيْتِنْغيل دائمًا مُرْتَبِطًا بِحَرْبِ القِرْمِ خاصّةً، ولكِنَّ عَمَلَها الصّابِرَ الدَّؤُوبَ عَلى مَدى حَياتِها الطَّويلَةِ هُوَ الّذي جَعَلَ مُسْتَشْفَياتِنا تَصِلُ إلى ما هِيَ عَلَيْهِ اليَوْمَ. إلَيْكُم قِصَّةَ حَياتِها.

١٩٧٧

٧

فلورَنس نَيْتِنْغيل

تأليف : ل. دوغاردِ پيتش
نقله الى العربية : رجا حوراني
وضع الرسوم : جون كني



الناشرون:
مكتبة لبنان — بيروت
ليديبرد بوك ليمتد — لافبورو
لونغمان — هارلو



فلُورَنْس نَيْتِنْغيل

اسْمُ فلُورَنْس نَيْتِنْغيل مَعْرُوفٌ في جَمِيعِ أنحاءِ العالَمِ، وهُوَ اسْمٌ مُكَرَّمٌ في كُلِّ بَلَدٍ مُتَحَضِّرٍ. ولا غَرْوَ، فإنَّ ما يَلْقاهُ المَرْضَى اليَوْمَ مِنْ عِنايَةٍ تامَّةٍ، في أُلُوفِ المُسْتَشْفَياتِ ودُورِ النَّقاهَةِ، إنَّما يَرْجِعُ إلى الجُهْدِ الّذي أَوْقَفَتْ لَهُ فلُورَنْسُ حَياتَها.

كانَ والِدُها رَجُلاً بريطانيًا ثَرِيًا، يُقِيمُ مَعَ زَوْجِهِ في مَدِينَةِ فلُورَنْسَة في إيطاليا. وفي عامِ ١٨٢٠ وُلِدَتْ لَهُما ابْنَةٌ عُمِّدَتْ باسْمِ المَدِينَةِ الّتي وُلِدَتْ فِيها.

ولَمْ يَطُلْ بَقاءُ الوالِدَيْنِ في فلُورَنْسَةَ فَعادا إلى إنْكِلْترا، بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، حَيْثُ تَرَعْرَعَتْ فلُورَنْس وأَصْبَحَتْ فَتاةً تَسْتَرْعِي رَزانَتُها الأنْظارَ. كانَتْ مُولَعَةً جِدًا بالدُّمَى. وكانَتْ لُعْبَتُها المُفَضَّلَةُ افْتِراضَها أنَّ الدُّمَى مَرِيضَةٌ، وأنَّها هِيَ المَسْؤُولَةُ عَنْ تَمْرِيضِها لِتَعُودَ لَها العافِيَةُ.

لَقَدْ تَعَلَّمَتْ مِنْ والِدِها كَثِيرًا عَنْ تارِيخِ إنْكِلْترا وأُسْلُوبِ حُكْمِها. وكانَتْ، بِرِفْقَةِ والِدَتِها، تَعُودُ المَرْضَى في بَلْدَةِ «رُومْزِي» الصَّغِيرَةِ والقَرِيبَةِ مِنْ مَنْزِلِها، حامِلَةً لَهُمُ الطَّعامَ والعَوْنَ الطِّبِّيَّ.



ذاتَ يَوْمٍ خَرَجَتْ فلُورَنْسُ في نُزْهَةٍ عَلى ظَهْرِ جَوادِها، بِرِفْقَةِ كاهِنِ الكَنيسَةِ المُجاوِرَةِ لِمَنْزِلِها. وبَيْنَما هُما يَقْطَعانِ الطَّرِيقَ العامَّةَ، شاهَدا راعِيًا عَجُوزًا جالِسًا إلى جانِبِ الطَّرِيقِ، وبِقُرْبِهِ كَلْبُهُ «كاپ».

كانَ الرَّاعِي مُولَعًا جِدًّا بِكَلْبِهِ، وكانَ يَتَأَوَّهُ بِمَرارَةٍ، بِسَبَبِ الحادِثِ الّذي تَعَرَّضَ لَهُ كَلْبُهُ، وكُسِرَتْ ساقُهُ مِنْ جَرَّائِهِ، وبَدا أَنَّ «كاپ» المِسْكِينَ لا بُدَّ مُلاقٍ حَتْفَهُ.

وما أَنْ سَمِعَتْ فلُورَنْسُ بِهٰذا حَتَّى قَفَزَتْ عَنْ ظَهْرِ جَوادِها، وبالتَّعاوُنِ مَعَ الكاهِنِ، أَخَذَتْ تَفْحَصُ ساقَ الكَلْبِ المَكْسُورَةَ. ثُمَّ أَعَدَّا جَبائِرَ خَشَبِيَّةً رَقِيقَةً، وضَمَّدا بِها ساقَ الكَلْبِ. وسَرْعانَ ما شُفِيَ الكَلْبُ واسْتَعادَ نَشاطَهُ كَما كانَ قَبْلَ وُقُوعِ الحادِثِ.

ولا تَسَلْ عَنْ عَظِيمِ امْتِنانِ الرّاعِي وتَقْدِيرِهِ لِفلُورَنْسَ. وعِنْدَما أَصْبَحَتْ أَشْهَرَ مُمَرِّضَةٍ في العالَمِ كانَ يُخْبِرُ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ النّاسِ أَنَّ كَلْبَهُ «كاپ» كانَ أَوَّلَ مَرِيضٍ لَقِيَ العِنايَةَ مِنْها.



عِنْدَما أصبَحَتْ فلُورَنْسُ شابَّةً، تَحَوَّلَ حُبُّها لِلدُّمَى إلى شَغَفٍ بالشَّعْبِ وبالأَشْياءِ المُسْتَجِدَّةِ والمُثِيرَةِ الّتي كانَتْ تَظْهَرُ عَلى مَسْرَحِ الحَياةِ في إنْكِلْترا. كانَ والِدُها مُمَثِّلَ المَلِكِ في مُقاطَعَةِ هَمْشَيرَ. وكانَ يَسْتَقْبِلُ في مَنْزِلِهِ كَثِيرًا مِنَ الشَّخْصِيّاتِ الشَّهِيرَةِ، ومِنْهُمُ اللُّوردُ بالمَرْستُونُ الّذي أصْبَحَ فيما بَعْدُ رَئِيسًا لِلْوُزَراءِ.

في تِلْكَ الحِقْبَةِ كانَتْ إنْكلْترا في طَرِيقِ التَّحَوُّلِ مِنْ بِلادٍ زِراعِيَّةٍ إجْمالاً إلى بِلادٍ صِناعِيَّةٍ ذاتِ مَعامِلَ ومُدُنٍ كَبِيرَةٍ. كانَتِ السِّكَكُ الحَدِيدِيَّةُ في أوَّلِ عَهْدِها، وكانَتِ الاخْتِراعاتُ الحَدِيثَةُ كالتِلِغْرافِ قَدْ بَدَأَتْ تُغَيِّرُ أحْوالَ النّاسِ المَعِيشِيَّةَ.

تَمَيَّزَتْ فلُورَنْسُ بِعَقْلٍ مُحِبٍّ لِلاسْتِطْلاعِ، ورَغْبَةٍ في رُؤْيَةِ الأَشْياءِ وتَفَحُّصِها بِنَفْسِها. وحَدَثَ مَرَّةً أنْ قامَتْ بِزِيارَةِ أحَدِ المُسْتَشْفَياتِ، وفَجْأَةً تَبَيَّنَ لَها أنَّ الحاجَةَ مُلِحَّةٌ لِلقِيامِ بِعَمَلٍ ما، وأنَّها هِيَ نَفْسَها قادِرَةٌ عَلى القِيامِ بِذلِكَ.

فالمُسْتَشْفَى الّذي رَأَتْهُ كانَ قَذِرًا سَيِّءَ الأَوْضاعِ كَجَمِيعِ المُسْتَشْفَياتِ في تِلْكَ الأيّامِ. أمّا المُمَرِّضاتُ فَكُنَّ يَعْرِفْنَ شَيْئًا عَنْ كَيْفِيَّةِ العِنايَةِ بالمَرْضَى، وكانَ قَلِيلُونَ مِنْ هؤُلاءِ، الّذِينَ اضْطُرُّوا إلى دُخُولِ المُسْتَشْفَى، يَتَوَقَّعُونَ الخُرُوجَ مِنْهُ أحْياءً.



لَمْ تكُنْ مِهْنَةُ التَّمْريضِ في ذٰلِكَ الوَقْتِ هِيَ المِهْنَةَ العَظِيمَةَ الّتي نَعْرِفُها اليَوْمَ. ولِذا، فَقَدْ صُعِقَ والِدا فلورَنْس عِنْدَما أخْبَرَتْهُما عَنْ رَغْبَتِها في أنْ تُصْبِحَ مُمَرِّضَةً. وقَدْ جَرَّبا جُهْدَهُما لِيَمْنَعا ابْنَتَهُما مِنَ احْتِرافِ مِهْنَةٍ لَمْ تكُنْ -حَسَبَ تَقْدِيرِهِما- تَلِيقُ بِفَتاةٍ مُثَقَّفَةٍ.

وعَبَثًا حاوَلَتْ فلورَنْسُ، عِدَّةَ سَنَواتٍ، إقْناعَ والِدَيْها لِلْمُوافَقَةِ عَلى رَغْبَتِها. وكانَتْ طِيلَةَ تِلْكَ المُدَّةِ، تَدْرُسُ جَمِيعَ الكُتُبِ الطِّبِّيَّةِ الّتي في مُتَناوَلِها، وكَرَّسَتْ نَفْسَها لِتَمْريضِ أقْرِبائِها عِنْدَما كانُوا يَمْرَضُونَ. ولَمّا كانَ عَدَدُ هٰؤُلاءِ كَبِيرًا فَقَدْ أتاحَ لَها ذٰلِكَ فُرْصَةً لِلتَّمَرُّنِ عَلى مِهْنَةِ التَّمْريضِ.

وأخِيرًا، حِينَ بَلَغَتْ سِنَّ الثَّلاثِينَ، أقْنَعَتْ والِدَيْها بِالسَّماحِ لَها بِالذَّهابِ إلى ألْمانيا وبارِيسَ لِدَرْسِ مِهْنَةِ التَّمْريضِ. وعَمِلَتْ جاهِدَةً مُدَّةَ أرْبَعِ سَنَواتٍ في تَعَلُّمِ المِهْنَةِ الّتي اخْتارَتْها.

ثُمَّ وَقَعَ الحادِثُ الّذي قُدِّرَ لَهُ أنْ يُغَيِّرَ مَجْرَى حَياتِها كُلِّها. لَقَدْ نَشِبَتْ حَرْبُ القِرْمِ!



كانَت فلورَنْسُ قَدْ بَلَغَتِ الرّابِعَةَ والثَّلاثِينَ مِنْ عُمْرِها حِينَ وَقَعَتْ حَرْبُ القِرْمِ عامَ ١٨٥٤، بَيْنَ رُوسيا مِنْ جِهَةٍ، وتُرْكيا ـ تُوازِرُها إنْكِلْترا وفَرَنْسا ـ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

كانَتِ القِرْمُ ـ وهِيَ المِنْطَقَةُ الجَنُوبِيَّةُ مِنْ رُوسيا ـ مِنْطَقَةَ القِتالِ وهِيَ تَبْعُدُ مَسافَةً طَوِيلَةً عَنْ إنْكِلْترا. وحِينَ أُرْسِلَ الجُنُودُ البريطانِيُّونَ إلَيْها، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ طَبِيعَةِ تِلْكَ البِلادِ ومُناخِها. وقَدْ قاسَى الجُنُودُ الأَمَرَّيْنِ مِنْ جَرّاءِ ذٰلِكَ، فَقَدْ كانُوا يَرْتَدُونَ مَلابِسَ صَيْفِيَّةً في مُناخٍ بَرْدُهُ قارِسٌ جِدًّا في الشِّتاءِ. زِدْ عَلى ذٰلِكَ أَنَّ جَمِيعَ إمْداداتِهِمْ كانَتْ تُرْسَلُ في سُفُنٍ شِراعِيَّةٍ، بَطِيئَةٍ جِدًّا، وكانَتْ غالِبًا عُرْضَةً لِلتَّحَطُّمِ في عُرْضِ البَحْرِ.

لَقَدْ حارَبَ الجُنُودُ الإنْكِلِيزُ بِبَسالَةٍ فائِقَةٍ. وسَرْعانَ ما انْتَصَرُوا في أَوَّلِ مُجابَهَةٍ في تِلْكَ الحَرْبِ، عُرِفَتْ بِمَعْرَكَةِ «أَلْما» نِسْبَةً إلى نَهْرِ «أَلْما». وقَدْ دارَتْ رَحاها بَعْدَ مُرُورِ سِتَّةِ أَيّامٍ فَقَطْ عَلى إنْزالِ القُوّاتِ الإنْكِلِيزِيَّةِ إلى القِرْمِ. لَقَدْ عَبَرَتِ الجُيُوشُ النَّهْرَ وانْدَفَعَتْ نَحْوَ الهَضْبَةِ، عَلى الجِهَةِ المُقابِلَةِ، حَيْثُ كانَ الرُّوسُ يَتَحَصَّنُونَ في الخَنادِقِ. وسَرْعانَ ما سَقَطَتْ تِلْكَ الهَضْبَةُ وتَراجَعَ الرُّوسُ إلى مَدِينَةِ سِيباسْتُوبُول.



كانَ عَدَدُ الجُنُودِ الإنْكِلِيزِ الّذِينَ جُرِحُوا في مَعْرَكَةِ «أَلْما» كَبِيرًا، وكانَ لا بُدَّ مِنْ إرْجاعِهِمْ أَوَّلاً إلى الشّاطِئِ، قَبْلَ نَقْلِهِمْ بَحْرًا إلى المُسْتَشْفَياتِ في «سكُوتاري».

في أيّامِنا هٰذِهِ، تُجَهِّزُ كُلُّ دَوْلَةٍ جَيْشَها بِسَيّاراتِ اسْعافٍ وخَدَماتٍ طِبِّيَّةٍ لِلْعِنايَةِ بِالجَرْحَى في مَيْدانِ الحَرْبِ. أمّا في عام ١٨٥٤ فَلَمْ يَكُنْ هُنالِكَ سَيّاراتُ اسْعافٍ، وكانَ الجَرْحَى يُنْقَلُونَ في عَرَباتٍ بِدائِيَّةٍ عَبْرَ طُرُقٍ غَيْرِ مُعَبَّدَةٍ، وكانَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ يَمُوتُونَ في الطَّرِيقِ مِنْ نَزْفِ جِراحِهِمْ.

ما كانَ الشَّعْبُ الإنْكِلِيزِيُّ لِيَطَّلِعَ عَلى ما يَجْرِي في القِرْمِ، لَوْ لَمْ يَكْشِفْ ذٰلِكَ مُراسِلُ لِجَرِيدَةِ «التّايمس» أُوفِدَ لِتَغْطِيَةِ أَنْباءِ المَعارِكِ. لَقَدْ رَأى هٰذا المُراسِلُ جَمِيعَ ما كانَ يَجْرِي في المَيْدانِ، فَكَتَبَ في صَحِيفَتِهِ عَنْ أَحْوالِ الجَرْحَى الإنْكِلِيزِ قائِلاً: «يُنْقَلُ جُنُودُنا إلى السُّفُنِ مَسافَةَ ثَلاثَةِ أَمْيالٍ في عَرَباتٍ تَرُجُّ أَجْسامَهُمْ بِعُنْفٍ، بَيْنَما الإفْرَنْسِيُّونَ لَدَيْهِمْ مُسْتَشْفَياتُ مَيْدانٍ مُغَطّاةٌ، ويَلْقَى جَرْحاهُم عِنايَةً واهْتِمامًا أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمّا يَلْقاهُ مُواطِنُونا المَساكِينُ».



كانَ الجُنودُ الجَرْحَى عِنْدَ وُصُولِهِمْ إلى «سكُوتاري»، يُرْسَلُونَ إلى مُسْتَشْفَياتٍ تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ المُسْتَشْفَياتِ الّتي نَعْرِفُها اليَوْمَ. تِلْكَ كانَتْ بِناياتٍ قَدِيمَةً مُتداعِيَةً وقَذِرَةً. وبِسَبَبِ عَدَمِ تَوَفُّرِ الأَسِرَّةِ، كانَ الجَرْحَى يَفْتَرِشُونَ أَرْضَ المُسْتَشْفَى.

ولَمْ يَكُنْ لَدَى الجَرْحَى، في أَغْلَبِ الأَحْيانِ، أَغْطِيَةٌ كافِيَةٌ ولا بَطّانِيّاتٌ. ونَظَرًا لِقِلَّةِ الأَطِبَّاءِ، كانَتْ تَمْضِي أَيّامٌ قَبْلَ مُداواةِ جِراحِهِمْ. لَقَدْ ماتَ عَدَدٌ مِنْ أُولئِكَ الجُنودِ الّذِينَ كانَ مِنَ المُمْكِنِ إِنْقاذُهُمْ، لَوْ تَوافَرَتْ لَهُمُ الإِسْعافاتُ والعِنايَةُ الصِّحِيَّةُ.

ولَمْ يَكُنْ في هٰذِهِ المُسْتَشْفَياتِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ، بِطَبِيعَةِ الحالِ، مُمَرِّضاتٌ. وكانَ الجَرْحَى فِيها يَحْسُدُونَ زُمَلاءَهُم الفَرَنْسِيِّينَ الّذِينَ كانُوا يُعالَجُونَ في مُسْتَشْفَياتٍ أَفْضَلَ، وتُعْنَى بِهِمْ راهِباتٌ فَرَنْسِيّاتٌ.

وحَدَثَ أَنْ زارَ مُراسِلُ «التّايمس»، الّذي كَتَبَ عَنِ العَرَباتِ، المُسْتَشْفَياتِ في «سكُوتاري»، فأَرْسَلَ تَقْرِيرًا إلى صَحِيفَتِهِ جاءَ فِيهِ: «أَلا يُوجَدُ في إِنْكِلْترا نِساءٌ مُخْلِصاتٌ، يَتَمَتَّعْنَ بالكَفاءَةِ، والإِرادَةِ، لِتَمْرِيضِ الجُنودِ المُصابِينَ الّذِينَ يَتَأَلَّمُونَ في مُسْتَشْفَياتِ «سكُوتاري»؟»



كانَ وَزيرَ الحَرْبِيَّةِ في إنْكِلْترا رَجُلٌ اسْمُهُ سِدْني هِرْبَرْت، وعِنْدَما قَرَأَ عَنْ وَضْعِ المُسْتَشْفَياتِ في «سكُوتاري» قَرَّرَ وُجُوبَ إرْسالِ مُمَرِّضاتٍ إلَيْها. وكانَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ سابِقَةٌ بِفلُورَنْس نَيْتِنْغيل، فَكَتَبَ إلَيْها قائِلاً:

«هُنالِكَ شَخْصٌ واحِدٌ فَقَطْ في إنْكِلْترا، عَلى ما أعْلَمُ، باسْتِطاعَتِهِ القِيامُ بِتَنْظيمِ مَشْرُوعٍ كَهٰذا. فَهَلْ تُصْغينَ إلى هٰذا النِّداءِ وتَذْهَبينَ وتُنَظِّمينَ العَمَلَ بِكامِلِهِ؟»

ولٰكِنَّ فلُورَنْس لَمْ تَكُنْ لِتَنْتَظِرَ رِسالَةَ سِدْني هِرْبَرْت. فَقَدْ قَرَأَتْ عَنْ وَضْعِ المُسْتَشْفَياتِ في «سكُوتاري»، وفي اليَوْمِ ذاتِهِ كَتَبَتْ لِلْمَسْؤُولينَ تَعْرِضُ عَلَيْهِم خَدَماتِها. وذَهَبَتْ، بَعْدَ يَوْمَيْنِ، لِمُقابَلَةِ سِدْني هِرْبَرْت في وَزارَةِ الحَرْبِيَّةِ.

وسُرْعانَ ما أُنْجِزَتْ جَميعُ التَّرْتيباتِ. وفي أقَلَّ مِنْ أُسْبُوعٍ صَدَرَ مَرْسُومٌ بِتَعْيينِ فلُورَنْس مُشْرِفَةً عامَّةً عَلى فَريقِ المُمَرِّضاتِ اللَّواتي سَيُوفَدْنَ إلى المُسْتَشْفَياتِ الإنْكِليزِيَّةِ.

وكانَتِ المُهِمَّةُ المُلِحَّةُ أمامَ فلُورَنْس هِيَ إيجادَ مُمَرِّضاتٍ مُلائِماتٍ وراغِباتٍ في السَّفَرِ.



كانَتْ لِفلُورَنْس صَدِيقَةٌ حَمِيمَةٌ ٱسْمُها السَّيِّدَةُ بريسبرِدْج الّتي أظْهَرَتِ ٱسْتِعْدادًا لِلذَّهابِ مَعَها ومُعاوَنَتِها. وعِنْدَما بَدَأَت فلُورَنْس بِمُقابَلَةِ المُمَرِّضاتِ الرّاغِباتِ في العَمَلِ، كانَتِ السَّيِّدَةُ بريسبرِدْج تُعاوِنُها في مُهِمَّتِها.

وٱفْتُتِحَ مَكْتَبٌ في لَنْدَنَ. وسَرْعانَ ما تَقاطَرَ عَلَيْهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النِّساءِ، كُلٌّ تَنْتَظِرُ دَوْرَها لإجْراءِ المُقابَلَةِ. وقَدْ قَرَّ الرَّأْيُ عَلى تَجْنِيدِ أرْبَعِينَ مُمَرِّضَةً فَقَطْ، ومَعَ أنَّ مِئاتِ السَّيِّداتِ تَطَوَّعْنَ لِلْخِدْمَةِ، فَقَدْ كانَ مِنَ الصَّعْبِ جِدًّا ٱخْتِيارُ الأنْسَبِ بَيْنَهُنَّ.

كانَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ هٰؤُلاءِ النِّسْوَةِ جافِياتِ الطَّبْعِ، جاهِلاتٍ، ولَمْ يَكُنَّ قَدْ تَمَرَّسْنَ بالمِهْنَةِ إطْلاقًا. بَيْنَما تَقَدَّمَتْ نِساءٌ أُخَرُ مُثَقَّفات، رَأَينَ في العِنايَةِ بالجُنُودِ الجَرْحَى عَمَلاً نَبِيلاً ولٰكِنْ لَمْ تَكُنْ لَدَيهِنَّ فِكْرَةٌ عَنْ حَقِيقَةِ الوَضْعِ في المُسْتَشْفَياتِ العَسْكَرِيَّةِ.

وبَعْدَ مُقابَلَةِ مِئاتِ السَّيِّداتِ، اختارَت فلُورَنْس ثَمانِيًا وثَلاثِينَ، أكْثَرُهُنَّ مُمَرِّضاتٌ، مِنْ مُسْتَشْفَياتٍ رَهْبانِيَّة، وَقَفْنَ أنْفُسَهُنَّ عَلى خِدْمَةِ المَرْضَى.



لَمْ تُضِعْ فلُورَنْس نَيْتِينْغيل أيّ وَقْتٍ. لَقَدْ كانَتْ تُفَكِّرُ دائِمًا بِالرِّجالِ المُتَأَلِّمِينَ في «سكوتاري»، وبأَنْ إنْقاذَ أكْبَرِ عَدَدٍ مِنْهُمْ يَتَوَقَّفُ عَلى سُرْعَةِ وصُولِها مَعَ مُمَرِّضاتِها إلَيْهِمْ. وبَعْدَ أُسْبُوعٍ فَقَطْ مِنْ تَكْلِيفِها كانَتْ هِيَ وفَرِيقُ المُمَرِّضاتِ عَلى أُهْبَةِ الاسْتِعْدادِ لِرُكُوبِ البَحْرِ في رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ.

ورغم أنَّ قسمًا كَبِيرًا مِنَ الشَّعْبِ الإنْكِلِيزِيِّ قَدَّرَ بُطُولَةَ فلُورَنْس نَيْتِينْغيل وغَيْرَتَها الوَطَنِيَّةَ، فَقَدْ هَزِىءَ آخَرُونَ بِمَشْرُوعِها قائِلِينَ إنَّ النِّساءَ لا يَسْتَطِعْنَ تَحَمُّلَ الطَّقْسِ القاسِي في تُرْكِيا، وإنَّهُ عِوَضًا عَنْ تَمْرِيضِ الجُنُودِ الجَرْحَى سَوْفَ يَمْرَضْنَ هُنَّ، ويُصْبِحْنَ في حاجَةٍ إلى مَنْ يُمَرِّضُهُنَّ.

وعِنْدَما غادَرَتْ تِلْكَ الفِرْقَةُ الصَّغِيرَةُ مِنَ النِّساءِ البَطَلاتِ لَنْدَنَ، لَمْ يَكُنْ في وَداعِهِنَّ جَماهِيرُ مُتَحَمِّسَةٌ كَما كانَ في وَداعِ الجُنُودِ عِنْدَ مُغادَرَتِهِمْ لَنْدَن. كانَ النّاسُ يَنْظُرُونَ إلَيْهِنَّ نَظْرَةَ اللاَّمُبالاةِ، ويَتَنَبَّأُونَ بِعَوْدَتِهِنَّ قَرِيبًا.

ولَكِنَّ هٰذا الوَداعَ البارِدَ لَمْ يَكُنْ لِيَفُتَّ مِنْ عَزِيمَةِ فلُورَنْس نَيْتِينْغيل ورَفِيقاتِها أَوْ يُؤَثِّرَ في مَعْنَوِيّاتِهِنَّ. لَقَدْ كُنَّ يَقُمْنَ بِعَمَلٍ شَعَرْنَ أَنَّهُ مِنْ صَمِيمِ واجِباتِهِنَّ.



عِوَضًا عَنِ الإِبْحارِ عَبْرَ خَليجِ «بِسْكاي» إلى المُتَوَسِّطِ مُرورًا بِمَضيقِ جَبَلِ طارِق، سَلَكَتْ فِرْقَةُ المُمَرِّضاتِ طَريقًا آخَرَ، فَعَبَرْنَ القَنالَ الإِنْكِليزِيَّ إلى شَمالِ فَرَنْسا ومِنْها بَرًّا إلى مَرْسيليا. وحينَ وُصولِهِنَّ إلى ميناءِ «بولوني» عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ القَنالِ اسْتُقْبِلْنَ اسْتِقْبالاً رائِعًا.

هَتَفَتْ لَهُنَّ الجَماهيرُ الفَرَنْسِيَّةُ كَبَطَلاتٍ، وتَزاحَمَ النّاسُ عَلى حَمْلِ أَمْتِعَتِهِنَّ، كُلٌّ يُريدُ أَنْ يَكونَ السَّبّاقَ إلى ذٰلِكَ. كانَ يُقَدَّمُ لَهُنَّ كُلُّ ما يَحْتَجْنَ إِلَيْهِ، حَيْثُما ذَهَبْنَ، ورَفَضَ أَصْحابُ الفَنادِقِ أَنْ يَتَقاضَوا أَيَّةَ أُجورٍ مِنْهُنَّ، وأَصَرَّتْ إِدارَةُ سِكَكِ الحَديدِ عَلى أَنْ تَكونَ جَميعُ تَنَقُّلاتِهِنَّ مَجّانِيَّةً.

لَمْ تَكُنْ جَميعُ هٰذِهِ المَظاهِرِ لِتَبْهَرَ فلورَنْس نَيْتِنْغيل. كانَ هَمُّها الوَحيدُ الوُصولَ، بِأَسْرَعِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ، إلى «سكوتاري» حَيْثُ كانَ الجُنودُ عُرْضَةً لِلْمَوْتِ لِعَدَمِ تَوَفُّرِ العِنايَةِ اللاّزِمَةِ ـ تِلْكَ العِنايَةُ الّتي جاءَتْ هِيَ ورَفيقاتُها لِتَقْديمِها لَهُمْ. لِذا، كانَتْ فلورَنْسُ سَعيدَةً حينَ اجْتازَتْ مَعَ رَفيقاتِها فَرَنْسا، ورَكِبْنَ البَحْرَ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ «فِكْتِس» بِاتِّجاهِ الشَّرْقِ.



غادَرَتْ فلُورَنْسُ نَيْتِنْغيْل والمُمَرِّضاتُ المُرافِقاتُ لَها، فَرَنْسا، في أَواخِرِ شَهْرِ أُكْتُوبَر (تِشْرِينَ الأَوَّلِ). وفي هٰذا الفَصْلِ مِنَ السَّنَةِ يَكُونُ البَحْرُ المُتَوَسِّطُ أَحْيانًا هائِجًا جِدًّا. فَما كِدْنَ يَبْتَعِدْنَ قَلِيلاً عَنِ اليابِسَةِ حَتَّى هَبَّتْ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ.

كُنَّ مُسافِراتٍ في سَفِينَةٍ شِراعِيَّةٍ. وسَرْعانَ ما تَمزَّقَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَشْرِعَتِها بِفِعْلِ الرِّياحِ العاتِيَةِ وأَصْبَحَتِ السَّفِينَةُ تُواجِهُ خَطَرَ التَّحَطُّمِ عَلى الصُّخُورِ.

أَضِفْ إلى هٰذا، أَنَّ كَثِيراتٍ مِنَ المُمَرِّضاتِ أُصِبْنَ بِدُوارِ البَحْرِ وبَلَغَ بِهِنَّ الأَسَى حَدَّ النَّدَمِ عَلى تَبَرُّعِهِنَّ بِالقِيامِ بِتِلْكَ الرِّحْلَةِ.

ومِنْ حُسْنِ الطَّالِعِ، تَغَيَّرَ اتِّجاهُ الرِّيحِ، فَتَمَكَّنَتِ السَّفِينَةُ مِنَ الوُصُولِ إلى جَزِيرَةِ مالْطَه حَيْثُ لَجَأَتْ إلى مِينائِها، رَيْثَما خَمَدَتِ العاصِفَةُ وأَصْبَحَ البَحْرُ هادِئًا. ثُمَّ أَبْحَرْنَ ثانِيَةً، فَوَصَلْنَ «سكُوتاري» بَعْدَ مضيِّ ثَمانِيَةِ أَيّامٍ عَلى مُغادَرَتِهِنَّ مَرْسِيليا.



فِي هٰذِهِ الأَثْناءِ، وبَيْنَما كانَت فلورَنْسُ ورَفِيقاتُها لا يَزَلْنَ في عُرْضِ البَحْرِ، نَشِبَتْ مَعْرَكَةٌ أُخْرَى في القِرْمِ عُرِفَتْ بِمَعْرَكَةِ «بَلاكَلافا» نِسبَةً إلى قَرْيَةٍ بِهٰذا الاسْمِ كانَتْ تَحْتَلُّها قُوّاتٌ إنْكِلِيزِيَّةٌ، واسْكُتْلَنْدِيَّةٌ، وبِضْعُ مِئاتٍ مِنَ القُوّاتِ التُّرْكِيَّةِ. وقَدْ هاجَمَ الرُّوسُ هٰذِهِ القَرْيَةَ ولَكِنَّهُمْ صُدُّوا عَنْها بِفَضْلِ شَجاعَةِ فِرْقَةِ الخَيّالَةِ البَرِيطانِيَّةِ.

لَقَدِ اكْتَسَبَتْ مَعْرَكَةُ «بَلاكَلافا» شُهْرَتَها في تاريخِ بَريطانيا بِفَضْلِ الهُجُومِ الجَرِيءِ الّذي قامَ بِهِ لِواءُ الفُرْسانِ. كانَ اللِّواءُ مُؤَلَّفًا مِنْ نَحْوِ سِتِّمِئَةِ فارِسٍ. وبِسَبَبِ وُقُوعِ خَطَأٍ في تَحْدِيدِ مُهِمَّتِهِمِ التَبَسَ عَلى هٰؤُلاءِ الفُرْسانِ ما يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ. فانْدَفَعُوا خَبَبًا عَلى صَهَواتِ خُيُولِهِمْ في وادٍ يَزِيدُ طُولُهُ عَلى مِيلٍ. وكانَتْ مَدافِعُ الرُّوسِ تَحْصُدُهُمْ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ، فَسَقَطَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْهُمْ بَيْنَ قَتِيلٍ وجَرِيحٍ. ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَراجَعُوا عَنْ هَدَفِهِمْ حَتّى وَصَلُوا إلى مَصْدَرِ النِّيرانِ وأَسْكَتُوا المَدافِعَ وأَسَرُوا حامِيَتَها.

وقَدْ نَظَمَ الشّاعِرُ الكَبِيرُ اللُّورْد تِنِيسُون قَصِيدَةً مَلْحَمِيَّةً يَصِفُ فِيها هٰذا الهُجُومَ الشَّهِيرَ.



فِي الوَقْتِ الَّذِي كانَ جَرْحَى مَعْرَكَةِ «بَلاكَلافا» يَصِلُونَ فِيهِ إلى مُسْتَشْفَياتِ «سكُوتاري»، كانَتِ السَّفِينَةُ «ڤِكْتِس» تَدْخُلُ المِيناءَ. وبَدَلاً مِنْ أنْ يُرَحِّبَ أَطِبّاءُ الجَيْشِ بِفلُورَنْس نَيْتِنْغيل والمُمَرِّضاتِ المُرافِقاتِ لَهَا، فَقَدْ تَنَكَّرُوا لَهُنَّ جَمِيعُهُمْ.

فأَطِبّاءُ الجَيْشِ القُدَماءُ كانُوا يَخْشَوْنَ أنْ تُحْدِثَ النِّساءُ انْقِلابًا في المُسْتَشْفَياتِ وتُغَيِّرَ أَنْظِمَتَها. وكانَ هٰذا بالضَّبْطِ ما عَزَمَت فلُورَنْس نَيْتِنْغيل عَلى فِعْلِهِ، بَعْدَ أنْ رأَتِ الفَوْضَى والقَذارَةَ تَعُمّانِ المُسْتَشْفَياتِ.

كانَ رَئِيسُ الأَطِبّاءِ في الجَيْشِ يُدْعَى «جانْ هُول» ولَمّا لَمْ يَكُنْ في وُسْعِهِ إصْدارُ الأَوامِرِ لِفلُورَنْس لِتَعُودَ مَعَ المُمَرِّضاتِ إلى إنْكِلْترا، فَقَدْ قَرَّرَ مُضايَقَتَهُنَّ بِحَيْثُ يَتَّخِذْنَ تِلْقائِيًّا خُطُواتٍ سَرِيعَةً لِلْعَوْدَةِ مِنْ حَيْثُ جِئْنَ. فَخَصَّصَ لإقامَتِهِنَّ بُرْجًا قَدِيماً مُتَهَدِّمًا، تَسْرَحُ فِيهِ الجِرْذانُ وتَمْرَحُ، ودُونَ تَدْفِئَةٍ أَوْ أَثاثٍ.

ولَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ بِبالِ الدكْتُورِ هُول أَنَّ فلُورَنْس هِيَ مِنْ أَشَدِّ النِّساءِ صَلابَةً وأَنَّها جاءَتْ إلى «سكُوتاري» لِتَمْرِيضِ الجَرْحَى، ولَنْ يَكُونَ في وُسْعِهِ أَنْ يَعْمَلَ أَيَّ شَيْءٍ لِمَنْعِها مِنْ بُلُوغِ هَدَفِها.



كانَتْ غُرَفُ المُسْتَشْفى وقاعاتُهُ في حالَةٍ فَظيعَةٍ. ولا غَرابَةَ، إذا ما رَأَيْنا الدكتور هُول يحاوِلُ مَنْعَ المُمَرِّضاتِ المُدَرَّباتِ القادِماتِ مِنْ إنْكِلْترا مِنْ رُؤْيَةِ مُسْتَشْفَياتٍ كهذِهِ. وفي الواقِعِ كانَتِ المُسْتَشْفَياتُ قَذِرَةً بِشَكْلٍ مُخيفٍ. كانَتِ القاعَةُ الواحِدَةُ تَضُمُّ رِجالاً جَرْحَى إلى جَنْبِ رِجالٍ مُصابينَ بِأَمْراضٍ سارِيَةٍ ولَمْ يَكُنْ هُنالِكَ ما يَكْفي مِنَ الأَسِرَّةِ والبَطّانِيّاتِ. أمّا الطَعامُ فكانَ سَيِّءَ الطَّبْخِ، وقَلَّما يُقَدَّمُ إلى المَرْضَى قَبْلَ أنْ يَبْرُدَ.

ورُغْمَ كُلِّ ما تَمَكَّنَ الدكتور هُول مِنْ فِعْلِهِ أوْ قَوْلِهِ، مَضَتْ فلُورَنْس في تَوْزيعِ الأَعْمالِ عَلى المُمَرِّضاتِ: كَتَنْظيفِ الأرْضِ وحَفِّها، وغَسْلِ مُلاءاتِ الأَسِرَّةِ وتَوْفيرِ أسْبابِ الرَّاحَةِ لِلْجَرْحَى.

قابَلَ الجُنُودُ ذلِكَ بالشُكْرِ والامْتِنانِ. أمّا الأَطِبّاءُ، فَما فَتِئوا يَضَعُونَ العَراقيلَ في وَجْهِ المُمَرِّضاتِ. لَقَدْ بَدا واضِحًا لَهُمْ أنَّهُمْ لَوْ قامُوا بِواجِباتِهِمْ عَلى أتَمِّها، لَما اضْطُرَّتِ المُمَرِّضاتُ إلى غَسْلِ الأرْضِ وحَفِّها وتَنْظيفِ قاعاتِ المُسْتَشْفَى القَذِرَةِ. كانُوا يَخْشَونَ مِنْ أنْ تُرْسِلَ فلُورَنْس تَقاريرَ بِذلِكَ إلى صَديقِها وَزيرِ الحَرْبِيَّةِ.



كانَ لَدَى فلورَنس مِنَ المَهامِّ ما يَشْغَلُها عَنْ إرْسالِ التَّقاريرِ إلى إنْكلترا. وكانَ كُلُّ هَمِّها محْصورًا بالمُسْتَشْفَياتِ لِجَعْلِها مَكانًا نَظيفًا ومُريحًا.

وسَرْعانَ ما تَبَدَّلَتِ الأَحْوالُ بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ. فالرِّجالُ الجَرْحَى الَّذينَ كانُوا يَفْتَرِشُونَ الأَرْضَ القَذِرَةَ في كُلِّ مَكانٍ مِنَ المُسْتَشْفَى، حَتَّى وفي المَمَرّاتِ، أَصْبَحُوا الآنَ يَنامُونَ في أَسِرَّةٍ نَظيفَةٍ، وفي قاعاتٍ مُعَقَّمَةٍ بِصُورَةٍ صِحِّيَّةٍ. وقَدِ انْعَكَسَ هٰذا بِصُورَةٍ إيجابِيَّةٍ عَلى نَفْسِيَّةِ المَرْضَى. فَما أَنْ شَعَرُوا بِالعِنايَةِ والرِّعايَةِ المُحيطَةِ بِهِم، حَتَّى بَدَأَتْ صِحَّتُهُمْ تَتَحَسَّنُ.

وخِلالَ أَيّامٍ مَعْدُوداتٍ، تَبَدَّلَتِ الحالُ. فالرِّجالُ الَّذينَ كانُوا في أَشَدِّ حالاتِ اليَأْسِ والقُنُوطِ، يَنْتَظِرُونَ الخَلاصَ بالمَوْتِ، أَصْبَحُوا الآنَ في دَوْرِ النَّقَهِ فَرِحينَ، والسَّعادَةُ تَمْلأُ قُلُوبَهُمْ.

لَقَدْ كانَتْ مُسْتَشْفَياتُ «سكوتاري» وَصْمَةً في سُمْعَةِ بَريطانْيا، أَمّا الآنَ وبِفَضْلِ العَمَلِ المُخْلِصِ الدَّؤُوبِ الَّذي قامَتْ بِهِ نِساءٌ قَليلاتٌ، أَصْبَحَتْ تِلْكَ المُسْتَشْفَياتُ أَفْضَلَ مِنْ نَظيراتِها الفَرَنْسِيَّةِ ـ تِلْكَ الَّتي كانَ الجُنودُ البَريطانِيُّونَ يَحْسِدُونَ زُمَلاءَهُم الفَرَنْسِيِّينَ عَلَيْها مُنْذُ انْدِلاعِ الحَرْبِ.



كانَ الدكْتُورُ هُول رَجُلاً فظًّا لِلغَايَةِ. وعِوَضًا عَنْ أَنْ يَشْكُرَ لِفلُورَنْس جَميعَ ما قامَتْ بِهِ مِنْ أَعْمالٍ، فَقَدْ تَملَّكَهُ المَزيدُ مِنَ الحَسَدِ والحِقْدِ. أمَّا الجُنُودُ فكانُوا يَكْرَهُونَهُ لِسُوءِ مُعامَلَتِهِ لَهُمْ، ولإهْمَالِهِ إيّاهُمْ. وقَدْ زادَ مِنْ غَيْظِ الدكْتُور هُول ما كانَ يُبْدِيهِ الجُنُودُ مِن اعْتِرافٍ بِالجَميلِ لِلسَّيِّدَةِ الرَّؤُوفِ الّتي بَعَثَتْ فِيهِم الأَمَلَ والقُوَّةَ.

ومَعَ أَنَّ تَفاني فلُورَنْس نَيْتِنْغيل أَخْفَقَ في انْتِزاعِ اعْتِرافِ الدكْتُور هُول بِفَضْلِها، إلاَّ أَنَّ الأَطِبّاءَ الأَصْغَرَ سِنًّا، وقَدْ تَبَيَّنُوا التَّغْييرَ الكَبيرَ الّذي أَحْدَثَتْهُ في مَعْنَوِيّاتِ الجَرْحَى وتَطَلُّعاتِهِمْ إلى المُسْتَقْبَلِ، كانُوا أَلْطَفَ وأَكْرَمَ مِنْ رَئِيسِهِم السَّيِّءِ الطَّبْعِ.

لَقَدْ بَرْهَنَتِ المُمَرِّضاتُ أَنَّ الهازِئِينَ في بَرِيطانْيا كانُوا عَلَى خَطَأٍ حِينَ سَخِرُوا بِمَقْدِرَتِهِنَّ عَلَى تَمْريضِ جَرْحَى الحَرْبِ. ومُنْذُ ذلِكَ الحِينِ أَصْبَحَتِ المُمَرِّضاتُ جُزْءًا مِنَ الجَيْشِ. وفي الحَرْبَيْنِ العالَمِيَّتَيْنِ الماضِيَتَيْنِ، أَنْقَذَتْ حَياةَ الأُلُوفِ مِنَ الجُنُودِ الجَرْحَى بِفَضْلِ عِنايَةِ المُمَرِّضاتِ بِهِمْ.



كانَ الجَيْشُ البريطانيُّ مُنْذُ مِئَةِ سَنَةٍ يَخْتَلِفُ كَثيرًا عَنْهُ اليَوْمَ. فَكانَ الجُنودُ يُبْعَثونَ إلى الحَرْبِ في القِرْمِ مِنْ أَماكِنَ مُخْتَلِفَةٍ كالهِنْدِ مَثَلاً، مُرْتَدينَ مَلابِسَ رَقيقَةً تُناسِبُ طَقْسَ الهِنْدِ الحارَّ. أَمّا في القِرْمِ فَكانَ البَرْدُ قارِسًا جِدًّا في فَصْلِ الشِّتاءِ، ولَمْ يَكُنِ الجَيْشُ قَدِ ٱسْتَعَدَّ لِتَجْهيزِ أَفْرادِهِ بِالمَلابِسِ الصُّوفِيَّةِ مِنْ إِنْكِلْترا.

كانَ الجُنودُ أَيْضًا بِأَمَسِّ الحاجَةِ لِلأَحْذِيَةِ. وقَدْ عَمَّ الفَرَحُ قُلوبَ الجُنودِ حينَ أُعْلِنَ أَنَّ سَفينَةً مُحَمَّلَةً أَحْذِيَةً قَدْ غادَرَتْ إِنْكِلْترا في طَريقِها إِلَيْهِمْ. وحينَ وُصولِها تَبَيَّنَ، مَعَ الأَسَفِ، أَنَّ جَميعَ الأَحْذِيَةِ كانَتْ لِلْقَدَمِ اليُسْرى.

وقَدْ تَصَدَّتْ فلُورَنْس نَفْسُها لِتَصْحيحِ هٰذا الوَضْعِ. فاشْتَرَتْ مَلابِسَ صُوفِيَّةً ووَزَّعَتْها عَلى الجُنودِ. وخِلالَ الأَشْهُرِ الأُولى القَليلَةِ زَوَّدَتْهُمْ بِعَشَرَةِ آلافِ قَميصٍ لَمْ يَكُنْ بِوُسْعِ الجَيْشِ تَأْمينُها.

وفي ذاتِ الوَقْتِ تَسَلَّمَتْ فلُورَنْسُ ورَفيقاتُها المُمَرِّضاتُ إِدارَةَ مَطابِخِ المُسْتَشْفَياتِ. ومُنْذُ ذٰلِكَ الحينِ أَصْبَحَ الرِّجالُ الجَرْحى يَتَناوَلونَ طَعامَهُمْ ساخِنًا وجَيِّدَ الطَّبْخِ.



مَعَ أَنَّ اسْمَ فلُورَنْس نَيْتِنْغيل أَصْبَحَ عَلى كُلِّ لِسانٍ وشَفَةٍ، بَلْ ومَوْضِعَ التَّكْريمِ والتَّقْديرِ في كُلِّ مَكانٍ نَظَرًا لِما قامَتْ بِهِ مِنْ جَليلِ الأَعْمـالِ في القِرْمِ، ظَلَّ الدكْتور هُول يُكِنُّ لَها أَعْمَقَ الكُرْهِ.

لَقَدْ بَدا واضِحًا لَهُ أَنَّهُ بِتَزايُدِ إِنْجازاتِها، تَزْدادُ مَعْرِفَةُ الشَّعْبِ في إِنْكِلْترا بِفَداحَةِ إِهْمالِهِ. فأَخَذَ يَشْكو مِنَ المُعامَلَةِ المُدَلَّلَةِ الَّتي تُوَفِّرُها فلُورَنْسُ لِلْجُنودِ في المُسْتَشْفَياتِ، زاعِمًا أَنَّهُمْ باتوا يُفَضِّلونَ البَقاءَ فيها على مُغادَرَتِها. بَيْدَ أَنَّهُ كانَ يَرْتَئي جَعْلَ المُسْتَشْفَياتِ مَكانًا غَيْرَ مُريحٍ بِحَيْثُ يُفَضِّلُ الجُنودُ مُغادَرَتَها والعَوْدَةَ إِلى جَبْهَةِ القِتالِ.

وفي أَحَدِ الأَيّامِ اسْتَدْعى الدكْتورُ هُول فلُورَنْس، وأَخْبَرَها بِلَهْجَةٍ قاسِيَةٍ أَنَّها تَقومُ بِأَعْمالٍ يَفوقُ ضَرَرُها نَفْعَها، وأَنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَيْها أَنْ تَعودَ أَدْراجَها إِلى إِنْكِلْترا مَعَ زَميلاتِها المُمَرِّضاتِ.

لَمْ تُناقِشْهُ فلُورَنْسُ في هٰذا المَوْضوعِ، بَلِ اكْتَفَتْ بِأَنْ أَطْلَعَتْهُ عَلى رِسالَةٍ وَرَدَتْ لَها في ذٰلِكَ اليَوْمِ مِنَ المَلِكَةِ فِكْتوريا تَشْكُرُ فيها «لِلآنِسَةِ نَيْتِنْغيل والسَّيِّداتِ زَميلاتِها» كُلَّ ما يَقُمْنَ بِهِ مِنْ أَعْمالٍ.

وكانَ ذٰلِكَ كافِيًا لإِسْكاتِ الدكْتور هُول.



أمّا فلورنسُ فقَدْ تعمّدَتْ اطْلاعَ جميعِ المَسْؤولينَ على رسالةِ المَلِكةِ إليها. وقَدْ نتجَ عنْ هذا أنَّ أحدًا لَمْ يجْرُؤْ على مَنْعِها مِنَ القِيامِ بأيِّ عمَلٍ كانَتْ ترى أنّهُ لِصالِحِ الجَرْحى.

عِنْدَما يتدفّقُ مِئاتُ الجَرْحى على أحدِ المُسْتشفياتِ، تُصْبِحُ الحاجةُ ماسّةً إلى كمّيّاتٍ وافِرةٍ مِنَ الضّماداتِ والتّجْهيزاتِ الطِّبّيّةِ مِنْ جميعِ الأنْواعِ، وكانَتْ هُنالِكَ شكْوى دائِمةٌ مِنْ نُقْصانِ هٰذِهِ المَوادِّ. وذاتَ يوْمٍ اكْتشفَتْ فلورنس أنّهُ تُوجَدُ مُسْتوْدَعاتٌ كبيرةٌ تحْتوي على جميعِ تِلْكَ اللّوازِمِ، ولكِنَّ الدّكْتور هُول لَمْ يَسْمَحْ بِوَضْعِها تحْتَ تصَرُّفِها، مُتذرِّعًا بأنَّ صَرْفَ هٰذِهِ المَوادِّ مُرْتَبِطٌ بِمُوافَقةِ لَجْنةٍ خاصّةٍ.

حينَما أُبْلِغَتْ فلورنسُ أنَّ اللّجْنةَ لَنْ تجْتمِعَ قبْلَ ثلاثةِ أسابيعَ، ثارَ ثائِرُها. كانَ الرِّجالُ يُعانونَ الآلامَ بِسَبَبِ فِقْدانِ هٰذِهِ اللّوازِمِ عَيْنِها. فَما كانَ مِنْها إلّا أنِ اقْتحمَتْ هِيَ وزَميلاتُها المُسْتوْدَعاتِ وفتَحْنَ الصّناديقَ عَنْوةً، وعَلى مَرْأى مِنَ الدّكْتورِ هُول واللّجْنةِ الخاصّةِ. لَقَدْ ذُهِلوا مِمّا شاهَدوا، وكانَ بِوُدِّهِمْ لَوِ اسْتطاعوا مَنْعَها، ولكِنّهُمْ تذكّروا رِسالةَ المَلِكةِ فكتوريا.



بالرّغمِ مِنْ أَنَّ الطّعامَ المُقدَّمَ لِلرّجالِ في مُسْتَشفَياتِ «سكُوتاري» أصْبَحَ يُطْبَخُ الآنَ بِصُورَةٍ أفْضَلَ مِمّا كانَ عَلَيْهِ سابِقًا، فَقَدْ كانَ يَنْقُصُهُ التّنْويعُ، وبِوَجْهٍ خاصٍّ جَميعُ أنْواعِ الخُضَرِ، وهِيَ مادّةُ الطّعامِ الّتي بِدُونِها يَبْقَى النّاسُ عُرْضَةً لِلْوَهَنِ والمَرَضِ.

وهٰكَذا قَرَّرَت فلُورَنْسُ أنْ تَسْتَفيدَ مِنَ الأَرْضِ البُوْرِ المُحيطَةِ بالمُسْتَشْفَياتِ فَتَزْرَعَها بِأنْواعٍ مِنَ الخُضَرِ في فَصْلِ الرَّبيعِ. وقَدْ أَقْنَعَتِ اثْنَيْنِ مِنَ الرُّقَباءِ الجَرْحَى بِعَزْقِ الأَرْضِ تَمْهيدًا لِزَرْعِها بالخَسِّ والمَلْفُوفِ.

وسُرْعانَ ما تَحَلَّقَ حَوْلَ الرَّقيبَيْنِ جَماعَةٌ مِنَ الرِّجالِ يُراقِبُونَهُما وهُما يَعْزِقانِ الأَرْضَ تَحْتَ أَشِعَّةِ شَمْسِ الرَّبيعِ الدّافِئَةِ. لَقَدْ ظَنُّوا، أوَّلَ وَهْلَةٍ، أنَّ ذٰلِكَ مَدْعاةٌ لِلتَّسْلِيَةِ والمُراحِ. ولٰكِنْ، ما أنْ أطَلَّتْ عَلَيْهِم فلُورَنْسُ بِنَفْسِها حَتّى تَبَدَّلَتِ الحالُ، فَشَمَّرَ الرِّجالُ عَنْ سَواعِدِهِمْ وشَرَعُوا يَعْزِقُونَ الأَرْضَ أُسْوَةً بالرَّقيبَيْنِ.

أمّا الدكْتُور هُول فَقَدْ جُنَّ جُنُونُهُ، ولٰكِنَّ الخُطَّةَ أَثْمَرَتْ وحَصَلَ الجَرْحَى عَلى أطْباقِ الخُضَرِ في وَجَباتِهِمْ وتَماثَلُوا لِلشِّفاءِ بِخُطُواتٍ أسْرَعَ.



كانَت فلُورَنْس نَيْتِنْغيل شغُوفَةً باسْتِطْلاعِ الأُمُورِ بِنَفْسِها عَنْ كَثَبٍ، وكانَتْ أَيْضًا ذاتَ مَوْهِبَةٍ عَظِيمَةٍ في تَنْظِيمِ الأَشْياءِ وتَنْسِيقِها بِحَيْثُ تَأْتي بالفائِدَةِ المَرْجُوَّةِ. وفي الواقِعِ، قالَتْ عَنْها المَلِكَةُ فِكْتُوريا في إحْدَى المُناسَباتِ: «كَمْ كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّها في وَزارَةِ الحَرْبِيَّةِ.»

ولَـمَّا كانَ الرِّجالُ المُصابُونَ يَصِلُونَ إلى «سكُوتاري»، وعَلَيْهِم أَقْذارُ المَعْرَكَةِ، وجِراحُهُمْ إمَّا سَيِّئَةُ التَّضْمِيدِ، أَوْ غَيْرُ مُضَمَّدَةٍ إطْلاقًا، قَرَّرَتْ فلُورَنْس الذَّهابَ إلى «بلاكَلافا» لِتُراقِبَ مَراكِزَ التَّضْمِيدِ في الخُطُوطِ الأَمامِيَّةِ مِنَ الجَبْهَةِ. وكانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُحاوِلَ الدُّكْتُورُ هُول مَنْعَها مِنَ الذَّهابِ ولَكِنَّهُ، كَعادَتِهِ أَخْفَقَ في ذَلِكَ.

تَوَجَّهَت فلُورَنْسُ إلى الجَبْهَةِ في قَلْبِ القِرْمِ، وزارَتْ خُطُوطَ الجَبْهَةِ خَلْفَ الخَنادِقِ حَوْلَ «سَباسْتُوبول». لَقَدْ كانَ هُناكَ في اسْتِقْبالِها لا أَطِبّاءُ حَسُودُونَ وغَيْرُ أَكْفاءٍ، بَلْ رِجالٌ مَدِينُونَ لَهَا بِحَياتِهِمْ، وآخَرُونَ مِلْؤُهُم اليَقِينُ أَنَّهُمْ في حالَةِ إصابَتِهِمْ سَيَلْقَوْنَ العِنايَةَ التّامَّةَ عَلى يَدَيْها.

كانَ الجُنُودُ ـ وهِيَ تَتَنَقَّلُ بَيْنَهُمْ بِعَرَبَتِها الصَّغِيرَةِ يَهْتِفُونَ لَها وكَأَنَّها المَلِكَةُ بِذاتِها.



عادَت فلورَنسُ إلى «سكوتاري» تَعمَلُ بِجُهْدٍ وإخْلاصٍ عَلى تَحْسِينِ الخِدْمَةِ في المُسْتَشْفَياتِ وتَمريضِ الجَرْحَى. ثُمَّ صارَتِ الأُمُورُ أكْثَرَ صُعُوبَةً حِينَما أُسْنِدَتْ وَزارَةُ الحَرْبِيَّةِ إلى غَيْرِ صَدِيقِها سِدْني هِرْبَرْت.

ولَكِنَّها كانَتْ لا تَزالُ تَتَمَتَّعُ بِدَعْمِ المَلِكَةِ وإخْلاصِ الجُنُودِ ومَحَبَّتِهِمْ. كَتَبَتْ إلَيْها المَلِكَةُ ثانِيَةً، قائِلَةً: «إنّـي مُتَيَقِّنَةٌ، أنَّكِ تَعلَمِينَ، التَّقْدِيرَ البالِغَ الّذِي أُكِنُّهُ لِما تُظْهِرِينَهُ مِنْ تَفانٍ ورُوحٍ مَسِيحِيَّةٍ في هٰذِهِ الحَرْبِ. ولا حاجَةَ بِي، لِأَنْ أُكَرِّرَ لَكِ عَمِيقَ إعْجابِي بِخَدَماتِكِ الّتِي تُضاهِي تَمامًا خَدَماتِ جُنُودِيَ الأَبْطالِ».

أمّا بالنِّسْبَةِ إلى الجُنُودِ أنْفُسِهِمْ فلا تَسْتَطِيعُ الكَلِماتُ التَّعْبِيرَ عَنْ تَقْدِيرِهِمْ وحُبِّهِمِ الشَّدِيدِ لِفْلُورَنْس.

كانَت فلورَنس، في ساعاتِ اللَّيْلِ، وأحيانًا بَعْدَ مُنْتَصَفِهِ بِوَقْتٍ طَوِيلٍ، تَحْمِلُ قِنْدِيلَها الصَّغِيرَ عَبْرَ القاعاتِ الهادِئَةِ تَتَفَقَّدُ المَرْضَى لِتَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ عَلى ما يُرامُ. لَقَدْ بَلَغَ مِنْ حُبِّهِم لَها، أنَّهُ حَتّى الجُنُودُ الغَلِيظُو القُلُوبِ، كانُوا يَلْثِمُونَ ظِلَّها وهِيَ تَمُرُّ بَيْنَ صُفُوفِهِم.



لَقَدِ انْتَهَتْ مُهِمَّةُ فلُورَنْس نَيْتِنْغيل في القِرْمِ بانْتِهاءِ الحَرْبِ، وعادَتْ إلى إنْكِلْتَرَا.

عِنْدَما أَبْحَرَتْ، قَبْلَ عامَيْنِ، عَلى ظَهْرِ السَّفِينَةِ «ڤِكْتِس» لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ في وَداعِها سِوى أُولَئِكَ الّذِينَ سَخِرُوا مِنْهَا بِسَبَبِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ. أَمَّا الآنَ، عِنْدَ عَوْدَتِهَا، فَقَدِ اسْتَقْبَلَتْها الأُمَّةُ بِكامِلِها تُحَيِّيها كأَعْظَمِ نِساءِ العَصْرِ.

لَقَدْ لُقِّبَتْ «بِمَلاكِ القِرْمِ»، و«بالسَّيِّدَةِ ذاتِ المِصْباحِ». وكانَتْ، أَنَّى تَوَجَّهَتْ، تَزْدَحِمُ الجَماهِيرُ في الشَّوارِعِ لِلتَّطَلُّعِ إلَيْهَا وتَكْرِيمِها.

وجاءَتْ أَعْظَمُ لَحْظَةٍ في حَياتِهَا عِنْدَما اسْتَقْبَلَتْهَا المَلِكَةُ ڤِكْتوريا، وقَدَّمَتْ لَهَا دَبُّوسًا مِنَ الأَلْماسِ مِنْ تَصْمِيمِ الأَمِيرِ زَوْجِهَا. وقَدْ نُقِشَتْ عَلى أَحَدِ وَجْهَيْهِ كَلِمَةُ «القِرْمِ»، وعَلى الوَجْهِ الآخَرِ عِبارَةُ «طُوبَى لِلرُّحَماءِ».

سَيَبْقَى اسْمُ فلُورَنْس نَيْتِنْغيل شَهِيرًا دائِمًا بَيْنَ النِّساءِ العَظِيماتِ، لَيْسَ في إنْكِلْترا فَحَسْبُ، بَلْ في العالَمِ أَجْمَعَ. إنَّ المُسْتَشْفَياتِ الحَدِيثَةَ المُمْتازَةَ، والمُمَرِّضاتِ اللَّواتي يُكَرِّسْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلْعَمَلِ فِيها، لَمَدِينُونَ لَهَا دَيْنًا خالِدًا. كَما أَنَّ حَياةَ كُلٍّ مِنَّا قَدْ تَأَثَّرَتْ عَنْ طَرِيقِ هٰذِهِ المُسْتَشْفَياتِ ومُمَرِّضاتِها بِأَعْمالِ هٰذِهِ السَّيِّدَةِ العَظِيمَةِ.

السّلسلة التّاريخيّة

(١) جان دارك

(٢) ماركوبولو

(٣) الكابتن سكوت

(٤) نابوليونُ

(٥) كليوباترا ومِصْرُ القَديمةُ

(٦) تشارلز ديكنز

(٧) كريستوفر كولمُبسُ

(٨) الإسْكَنْدَرُ الأكْبَرُ

(٩) الحَضاراتُ الكُبْرى : مصر

(١٠) فلورَنْس نَيْتِنْغيل

Series 561 / Arabic
